التآكل من الداخل
أكبر خطر يهدد الصحوة [1]

فى مسيرة الأمة « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فقدّموا لنا الفعل المنتج الذى أسهم فى صنع تاريخها والتأثير فى حاضرها وتحديد ملامح مستقبلها وظلت بصماتهم واضحة على هويتها وكينونتها مع تعاقب الأجيال والسنين .

هؤلاء الرجال كانوا فرساناً فى ميادينهم ومشاعل نور إضاءة الطريق للقادمين بعدهم ليستيروا على دربهم وينهجوا نهجهم ويكملوا المسيرة من بعدهم .

وفى هذا الزمان المتلاطم الأمواج العظيم التحديات نجد أننا دوماً فى حاجة إلى هؤلاء الرجال القدوة نستلهم قيمهم ونقتفى آثارهم ونبحث عن المخرج من مأزق الأمة وسط أوراقهم .

وفى محاولة للتلاقى مع فكر وعطاء هؤلاء .. قامت « عكاظ » بإجراء استبيان لاختيار أهم ثلاثين شخصية خدمت الإسلام خلال القرن الماضى .. وقد شارك فى هذا الاستبيان ثلاثة وخمسون عالماً ومفكراً من كافة أنحاء العالم الإسلامى حيث قام كل واحد منهم بترشيح أهم الشخصيات من وجهة نظره .. وقد تمخض الاستبيان عن اختيار هؤلاء :

الدكتور يوسف القرضاوى العالم والفقيه والمفكر والداعية الإسلامى المعروف .. أحد الرجال الذين جنّدوا حياتهم فى سبيل الله عاملين لنشر الإسلام داعين إلى الإيمان والتمسك بحبل الله ..

---

(١) نُشر فى جريدة « عكاظ » بتاريخ الجمعة ١٣ رمضان سنة ١٤١١ هـ (٢٩ مارس سنة ١٩٩١ م) . أجرى الحوار الأخ صالح عبد الفتاح .

فهو فقيه معلّم .. فقّه الناس فى أمور دينهم وصحّح مفاهيم مغلوطة كثيرة علقت بعقيدتهم وكادت أن تفسد عليهم دينهم ..

وهو خطيب ألهب العواطف، وأنار العقول وغرس فى نفوس الأجيال قيم الإسلام وتعاليمه ..

وهو قدوة فى فكره ومنهجه ، تتمثل فيه الاستقلالية فى الفهم ، وعدم التبعية وبذل الجهد الخارق لمواجهة التيّارات الهدّامة ، ودفع العمل الإسلامى إلى الأمام انطلاقاً من كتاب اللّه العظيم وسُنّة رسوله الشريفة ..

وهو مجتهد .. ناقش بجرأة أحكاماً ومواقف وسيراً قصد من ورائها تصحيح المفاهيم السائدة ، والرد على المغلوط فيها ، لتقديم الإسلام فى أكمل وجه، وإيضاح أوجه الخلل والتأكيد على أن المواقف وظروف الواقع قد توجب أحكاماً تختلف فى ظروف ومواقف أخرى .. فلا عصمة إلا لمحمد ﷺ .

وهكذا انطلق الدكتور القرضاوى فى سن مبكرة داعياً إلى الإسلام ، وباحثاً متعمقاً ، ودارساً واعياً ، ليُقدّم الأنموذج للداعية المتميز ..

وفى هذا الحوار يحكى الدكتور القرضاوى رحلته مع الدعوة الإسلامية وهمومها وواقعها فى العصر ، ويطرح أفكاره قابلاً ورافضاً ، ومتفقاً ومنتقداً .. ناهلاً فى كل ذلك من معين الإسلام الذى لا ينضب .

* * *

يتيم مكرّم

● لتسمح لنا يا شيخ فى البداية أن نلقى نظرة من القرب على حياتك ونشأتك !

● ● أنا من مواليد قرية « صفط تراب » التابعة لمركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية فى جمهورية مصر العربية .. ولدت عام ١٩٢٦ فى أسرة متدينة رقيقة الحال حيث يعمل أهلى بالزراعة .. وقد توفى والدى وأنا فى

الثانية من عمرى ، وربانى عمى الذى أحاطنى بالرعاية الشديدة هو وأبناؤه الذين وجدت فيهم العوض الكبير ، فلم تعترضنى أية مشاكل فى طفولتى ، بل وجدت عناية ورعاية وحناناً وحباً ومودة من أقاربى عامة .

وعندما بلغتُ الخامسة من عمرى التحقتُ بكُتَّاب القرية لأحفظ القرآن الكريم ، وفى السابعة دخلتُ المدرسة الإلزامية التابعة لوزارة المعارف ودرستُ فيها الحساب والتقويم والتاريخ والصحة وغيرها ..

وأتممت حفظ القرآن فى العاشرة من عمرى حفظاً مجوَّداً ، وبعدها كان الناس يقدموننى لأؤمهم فى الصلاة فحُرِمت من وقت مبكر من اللعب ، وفرص المرح التى قد يستمتع بها الصغار .

وعندما أنهيتُ دراستى بالمدرسة الإلزامية كنت أتطلع إلى ذلك اليوم الذى أصبح فيه عالماً ، ولكن عمى تردد فى البداية ، معتقداً أن طريق العلم شاق وطويل ، ونصحنى أن أتعلم حرفة توفر لى أسباب العيش من أقصر طريق . لكننى أصررت على مواصلة مسيرة العلم والتحقت بمعهد طنطا الدينى حيث بقيت فيه أربع سنوات ، ثم انتقلت للمعهد الثانوى الذى استمرت فيه الدراسة خمس سنوات .. ورحلت بعدها للقاهرة حيث درست فى كلية أصول الدين ، وحصلت على الشهادة العالية عام ١٩٥٣ وكنت الأول على دفعتى ، والتحقت بتخصص التدريس فى كلية اللغة العربية ، وحصلت على العالَمية مع إجازة التدريس ، وحزت المرتبة الأولى من بين خمسمائة طالب من كليات الأزهر الثلاث ، ثم التحقت فى عام ١٩٥٧ بمعهد البحوث والدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية وحصلت منه على دبلوم عالٍ فى شعبة اللغة والأدب كما حصلت بعد ذلك على (الدكتوراة) بمرتبة الشرف من كلية أصول الدين .

* *

القراءة والاحتكاك بالعلماء

● الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى .. هل تعتقد أن التعليم الرسمى مثلما ذكرت مسيرتك معه كاف لتأهيل الداعية ؟

● ● لا .. ليس وحده ، بل إن مَنْ ينصب نفسه أو يعدها لأمانة العلم والدعوة عليه أن يستكمل تكوين شخصيته .. ولذلك لم أقتصر على الدراسة الرسمية فى الأزهر وطفقت أقرأ كلما استطعت أن أقرأ .. أشترى الكتاب وأحياناً أستعيره أو أذهب إلى دار الكتب منذ أن كنت فى المرحلة الابتدائية واتجهت فى قراءاتى الأولى للأدب والشعر .. وشغلت بالشعر وشغفت به فترة غير قليلة ، وقرأت فى الإسلاميات والتفسير والحديث والفقه والكلام والفلسفة والتصوف والتربية والعلوم والتاريخ والعلوم الإنسانية .

ومما ساعدنى فى هذه الناحية اتصالى المبكر بدعوة الإخوان المسلمين والتعرف على مؤسسها الأول الشيخ حسن البنا ، والاستماع إليه منذ السنوات الأولى فى الدراسة فى معهد طنطا ، وهذا فتح لى باباً واسعاً غير باب التلقى الرسمى من المشايخ .

فقد تعرفت على الإسلام الشامل ، وزاد اهتمامى بقضايا الأمة ، وهموم الدعوة ، ومشاكل المجتمع .. وأتاح لى ذلك خطاب مجموعات متنوعة ومتباينة من الناس غير تلك المجموعات التى كنت أخاطبها فى القرية .. وأمدنى ذلك بزاد كبير من الخبرة والتجربة فى ميدان الدعوة ومجال التربية .

* *

بين الغزالى وابن تيمية

● البعض تعتريهم التحولات فى حياتهم .. فهل هناك تحولات فى حياة الدكتور القرضاوى أم أن درب الحياة كان يسير فى اتجاه واحد منذ البداية ؟

● ● خطى الأساسى لم يتغير كثيراً ، لأن اللّه أنعم علىّ بأن أربط هذا الخط بالإسلام ، معرفة به وحباً له وغيرة عليه ، وجهاداً فى سبيله وسعياً فى خدمة قضاياه .

ولكن بحكم التوسع فى المعرفة والتعرف على المدارس الفكرية المختلفة يمكننى أن أقول إنه قد اعترانى بعض التحول .. فقد كنت فى مطلع شبابى شديد الإعجاب بالإمام أبى حامد الغزالى ، وكانت كتبه أول ما قرأت ، خصوصاً « إحياء علوم الدين » و « منهاج العابدين » .

وبعد أن أتيح لى الاطلاع على مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيره ، وجدت فيها ألواناً من التجديد لم تكن فى مدرسة الإمام الغزالى واعتبرت أن هذه المدرسة تكمل السابقة .. وبينهما تكامل لا تضارب، وتناسق لا تنافر .. وهذا لعله نهج لى فى مسارى الفكرى ، فأنا لا أتعصب لمدرسة بعينها ، ولا لشيخ بعينه ، بل أنظر إلى الجميع نظرة مَنْ يأخذ من كل واحد خير ما عنده ، على نهج ما قال بعض السَلَف الصالح : « خذ ما صفا ودع ما كدر » .

* *

البنا أستاذى ومعلمى

● هناك عدد من الشخصيات تؤثر فى حياة الإنسان .. فمَنْ هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على فكر الدكتور القرضاوى ؟

● ● أعظم الشخصيات التى أثّرت فى فكرى ومشاعرى وسلوكى هى شخصية الإمام حسن البنا ، فقد استعمتُ إليه مبكراً فى حياتى ، وأعجبت به ورأيت فيه الأستاذ والمعلم والمربى والداعية والمفكر ، ولهذا تلقفت تقريباً كل ما كتبه من رسائل ومقالات وبيانات ونهلت منها ، ووجدت فيها زاداً ونبراساً..

وهناك شخصيات أخرى تأثرتُ بها مثل الشيخ البهى الخولى صاحب كتاب « تذكرة الدعاة » ، وكذلك الشيخ محمد الغزالى مدّ اللّه فى عمره ، والدكتور محمد عبد اللّه دراز ، والشيخ محمود شلتوت رحمهما اللّه .. ولكن اللّه أكرمنى ، فلم أحاول أن أكون نسخة من واحد من هؤلاء الأفذاذ .

* *

لماذا نحن الضحية دوماً ؟

● لننطلق قليلاً إلى العموميات ونتساءل : هناك العديد من المعوقات والتحديات التى تواجه العمل الإسلامى .. فكيف يرى فضيلتكم هذه المعوقات وأثرها السلبى ؟

● ● هناك معوِّقات كثيرة أمام العمل الإسلامى .. بعضها معوِّقات خارجية والأخرى داخلية .. ولقد اهتممتُ بهذا الأمر مدة طويلة ورصدتُ بعض هذه المعوِّقات فى كتابى « الحل الإسلامى فريضة وضرورة » ، وركَّزتُ على العوائق الداخلية ؛ لأننى وجدت أننا تحدثنا طويلاً عن المعوِّقات الخارجية ، ومخطط الصهيونية العالمية ، والصليبية الغربية ، والشيوعية الدولية ، ووجدتُ أننا نلقى دائماً التبعة على هذه المخططات ، لكن هذا لا يمثل عذراً لنا ؛ لأنه يثير تساؤلاً مفاده : لماذا نظل دائماً ضحية تخطيط غيرنا ، ولا نخطط لأنفسنا ؟ لماذا نظل دائماً الفريسة وهم الصيادون ؟ ينبغى أن نبحث فى أنفسنا وعن الخلل فينا ..

والقرآن الكريم يشير إلى هذا فى تعقيبه على غزوة أُحد إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) .

لا بد أن يبحث الإنسان فى داخل نفسه عن السبب الذى جعله لا يصل إلى ما يحقق النصر الذى يبتغيه ، ولا عيب فى هذا ، فالإنسان معرَّض للنجاح والفشل ، والنصر والهزيمة .. لكن المهم أن يتدارك أخطاءه أو خطاياه ، ويحاول أن يجعل يومه خيراً من أمسه .

*

---

(١) آل عمران : ١٦٥

خلل فى فقه الأولويات

وبعد توقف يعود فضيلته مرة أخرى إلى الحديث عن المعوقات الداخلية .. ويقول :

ينبغى أن نركز على العوائق الداخلية ؛ فهناك خلل فى فقه الأولويات ، فقد نُقدِّم النافلة على الفريضة ، وقد نُقدِّم فرض الكفاية على فرض العَين ، وقد نُقدِّم فرض العَين الذى يتعلق بالفرد على فرض العَين الذى يتعلق بالجماعة .

وكذلك فقه السُنَن التى أقام اللّه عليها هذا الكون ..

وقد ذكرتُ فى كتابى « الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم » أن هناك قواعد فى الفقه يجب أن نهتم بها مثل فقه المقاصد العامة للشريعة ، وفقه السُنَن الكونية والاجتماعية ، وفقه الموازنات ، وفقه الأولويات .. أى نميز بين ما يأخذ رقم ١ وما يأخذ رقم ١٠ فى أمور الدين والحياة ، وذكرتُ أن الإسلام بِضع وسبعون شُعبة أعلاها : « لا إلَهَ إلاّ اللّه » ، وأدناها : « إماطة الأذى عن الطريق » ، فلا ينبغى أن نجعل الأعلى أدنى والأدنى أعلى .

*

الصحوة تتآكل من الداخل

ولا زال الحديث للدكتور القرضاوى الذى يضيف قائلاً :

« كذلك فقه الاختلاف وكيف تختلف آراؤنا ولا تختلف قلوبنا ، وكيف يمكن أن يكون لكل منا رأيه واجتهاده ، دون أن يؤدى ذلك إلى عداوة ولا بغضاء .. كيف نستطيع تطبيق هذه القاعدة الذهبية التى نادى بها العالِم الجليل الشيخ محمد رشيد رضا : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

هذه أشياء مهمة يجب أن نتخطاها سواء من حيث الشكل أو الخلل فى الترتيب أو فى التكوين أو من حيث استعجال الثمرة قبل أوانها ، ومن حيث التشتت الذى يعانية العاملون فى حقل الدعوة ، فقد أصبحوا مدارس متفرقة

وليتهم مدارس فى الرأى والفكر ، ولكنهم جماعات ينفر بعضها من بعض ، ويجافى بعضها البعض ، بل يعادى بعضها البعض .. وهذا يجب أن يزال من واقع الأمة ، وينبغى أن نلتفت إلى هذه الآفات ، لأنها هى التى تعين القوى المعادية للإسلام على ضرب الصحوة الإسلامية من داخلها ، وبذلك تتآكل الصحوة من الداخل قبل أن تُضرب من الخارج » .

* *

ثمار طيبة للصحوة

● بصفتكم أحد المعاصرين للعمل الإسلامى ، فكيف ترون خطوات التحرك نحو تحقيق الغاية الكبرى من تمكين الإسلام فى نفوس المسلمين والعمل به ؟

● ● العمل الإسلامى أنتج .. ومن الظلم أن نقول إنه لم يحقق شيئاً ، لأن هذا يصيبنا بالإحباط ، ولا يُقدِّم إجابة صحيحة للواقع ؛ لأننا نشهد الآن داخل وخارج العالَم الإسلامى صحوة إسلامية نلمس آثارها وثمارها ، وهى صحوة العقول التى تحاول أن تفهم الإسلام ، وصحوة القلوب والمشاعر المتدفقة بالحب للإسلام والغيرة على قضاياه ، وهى صحوة الالتزام والعمل ، يتمثل فى هذه المساجد العامرة وفى الحرص على أداء الحج والعُمرة ، وفى الالتزام بالحجاب الإسلامى بعد أن كان شيئاً نادراً بل وشاذاً فى الحياة الإسلامية قبل عقود قليلة . فلا شك أننا نلمس آثار الصحوة الإسلامية التى تجسدت فى الجهاد الأفغانى وصموده أمام أكبر قوة إلحادية فى التاريخ .. وكذلك أثر الصحوة داخل الاتحاد السوفييتى ، والانتفاضة الفلسطينية التى سُميت فى أول الأمر « ثورة المساجد » وحملت المصاحف وجعلت شعارها « لا إله إلا الله والله أكبر » وجعلت أنشودتها : « خيبر خيبر يا يهود .. جيش محمد سيعود » .

هذه الانتفاضة لا شك أنها من ثمار الصحوة ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الحركة الإسلامية قد آتت أُكلها ، واستطاعت إلى حد كبير أن تصنع إنجازاً عظيماً يتمثل فى هذا التوجه الإسلامى الذى يغلب على أى توجه آخر فى بلدان كثيرة .

فهناك آثار ينبغى ألا نهوِّن منها ، بل إنها رد عملى على تلك المكايد الضخمة والخفية التى يدبرها أعداء الإسلام الذين يملكون الخبرة والرجال والأدوات والمال والعتاد .. ومع كل هذا استطاع الإسلام أن ينتج شيئاً .

*

هذا ما نخاف منه

ويستدرك الدكتور القرضاوى قائلاً :

« لكن كل ما نخافه على الصحوة الإسلامية هو ما أسميناه (التآكل من الداخل) والانشغال بالقضايا الجزئية عن القضايا الكلية ، والاستغراق فى المختلَف فيه وترك المتفَق عليه » .

* *

عين للإسلام وعين للعصر

● لا يخفى عليكم أن الدعوة الإسلامية هى واجب الإنسان المسلم فى كل زمان وعصر .. فكيف ترون ملامح الدعوة فى هذا العصر الذى تَقدَّم فيه الإنسان وخطا خطوات واسعة على الأرض ؟

● ● يجب أن ننظر إلى الإسلام بعين ، وإلى العصر ومشكلاته بعين أخرى ، فلا نغفل أصول الإسلام ولا نتجاهل مشكلات وقضايا العصر ، وليس معنى أننا ننظر إلى قضايا العصر أن نطوِّع الإسلام للعصر ، ولكن أن نطوِّع العصر للإسلام ..

وقد سئلتُ لماذا لا يتطور الإسلام ؟ فقلت : ولماذا لا يسلم التطور ؟ .. وهذا يعنى أن ينقاد العصر للإسلام .. ولكن أى الإسلام هو ؟ إنه الإسلام من مصادره الأصلية ومنابعه الصافية .. الإسلام كما كان يفهمه الصحابة رضوان الله عليهم واتبعته بإحسان المدارس الإسلامية الأولى ، ليس الإسلام المتسيب، وليس الإسلام المتشنج المتشدد ، لأن بعض المسلمين أصبحوا أثقالاً على الناس فى حين أن النبى ﷺ جاء لرفع الأثقال عن الناس . ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

---

(١) الأعراف : ١٥٧

الإسلام الذى نتطلع إليه هو الإسلام الذى يجمع الأمرين : الدين والعصر ، وهذا لا يعنى أننا نريد أن نميع الإسلام ونجعله عجينة للتشكيل لكل مَنْ هَبَّ ودب ، ولكل مَنْ يدَّعى الاجتهاد وهو لم يحط بالقرآن والسُنَّة ولم يدرس أصول الفقه ولم يتذوق اللغة وليست عنده المَلَكة التى تجعل منه الفقيه المجتهد .. لأن أمثال هؤلاء ليسوا مجدِّدين وإنما مبدِّدون .

نحن نريد الفهم الصحيح للإسلام وأن يتحول هذا الفهم إلى طاقة إيمانية للإسلام ، فنحن لسنا مستشرقين ندرس الإسلام فقط ، لكن الإسلام عقل ذكى وقلب نقى ..

نحن نريد العقل المتوقد ، والعاطفة الدافقة ، والإرادة الدافعة ، والعمل الملتزم والخُلُق القوى .. فهذه هى الشخصية التى نريدها .. وإذا فعلنا ذلك نكون قد سرنا على الطريق الصحيح ..

* *

هؤلاء خدموا الإسلام

● سؤال أخير .. ما هى أهم الأعمال التى خدمت الإسلام فى هذا العصر من وجهة نظركم ؟

● ● لا يمكن أن نقول إن هناك عملاً فكرياً أو دعوياً واحداً ؛ فهناك عدد كبير من العلماء والمفكرين أعطوا للإسلام .. ومن هؤلاء الإمام محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتفسير المنار الذى جمع بين السَلَفية والتجديد والأصالة والمعاصرة ودعا إلى الاجتهاد الصحيح وحارب العصبية والتقليد .. والعلَّامة محب الدين الخطيب صاحب الفتح والزهراء .. وهناك علماء أجلَّاء آخرون مثل الشيخ محمد أبو زهرة ، والشيخ أبى الأعلى المودودى ، والشيخ حسن البنا ، والشيخ مصطفى السباعى ، والشهيدين عبد القادر عودة ، وسيد قطب ، والشيوخ محمد الغزالى وسيد سابق ، وأبى الحسن الندوى ، ومصطفى الزرقا ، ومحمد المبارك ومحمد قطب وآخرون فى المغرب العربى مثل ابن باديس والبشير الإبراهيمى .. فكل هؤلاء قدَّموا للإسلام وخدموه ، وكتاباتهم فى حاجة إلى القراءة الفاحصة البيِّنة لتستفيد منها أجيال الشباب ولتشع آفاقها نحو مزيد من الفهم الواسع لهذا الدين العظيم .

* * *